الفصل الأول

الحديقة الاسلامية وعمارة البيئة

١- خلفية تاريخية

٢- تعريف الحديقة الاسلامية

٣- قارئ هذا الكتاب

٤- تصحيح المفاهيم

٥- جدوى دراسة الحديقة الاسلامية

obeikan.com

١- خلفية تاريخية

نشأت فكرة هذا البحث من اقتناع المؤلف بأربع نقاط أساسية:

أولًا: إن الفهم المتعارف عليه لتاريخ الفنون الإسلامية عامة ودراسة الحديقة الإسلامية خاصة سوف يعود على الإنسان العربى المعاصر ومدينته بثراء فكرى ورؤية واضحة لتراثه الروحى، ويبدو أننا اليوم أحوج ما نكون إلى هذا التراث ونحن نستقبل أيامًا وسنوات صعبة مليئة بالتحديات والحاجة إلى السعى والأمل والمواجهة لمواقف جديدة وعقبات جمة وآمال طموحة .

وفى تقديرى وتقدير الكثيرين، أن هذا التراث الروحى الذى نبحث اليوم فى ماهيته وكيفية إحيائه، هو ضرورة أساسية وعطاء جوهرى فى سبيل بناء الشخصية السوية المتكاملة للإنسان العربى المعاصر، هذا الإنسان الذى ستقع عليه فى المستقبل مهمة تخطيط وتصميم وتمويل وإدارة وتنفيذ وصيانة واستعمال المدينة العربية بكل عناصرها ومقوماتها.

ولا تخطئ النظرة العابرة ملاحظة ظاهرة عامة بشأن أغلب المدن العربية المعاصرة فى شتى أنحاء الوطن العربى، وفحواها افتقاد عنصر الجمال ولمسات الطبيعة، والطابع القومى الذى كان فيما مضى يميز القصور والمبانى والبيوت والمدارس والأسواق والطرقات والميادين والحدائق.

ونحن نرى أثر ما كان ـ فيما مضى ـ من وحدة اللغة والفكر والثقافة والعقيدة فى الوطن العربى الإسلامى بأساليبه المتعددة فى شتى الفنـون.

ويتفق الدارسون لهذا الموضوع على أن المدينة العربية بدأت تفقد جوهر شخصيتها الفنية منذ أن استسلمت وبغير رجعـة أمام زحف الطرز والأساليب المستوردة من الغرب وخاصة خلال عهود الاستعمار.

ثانيًا: إن العالم بأثره الآن يسير نحو نهضة فكرية جديدة، ومن خلالها يتكشف له تدريجيًّا أن «عمارة البيئة ـ Landscape Architecture» قـد يكون فعلًا أكثر الفنون شمولًا فى تاريخ البشرية.

وقد تبلورت هذه النهضة فى قرارات المؤتمر الدولى للأمم المتحدة الذى عقد فى استكهولم عاصمة السويد فى صيف عام ١٩٧٢، وقد سمى حينذاك بـ «مؤتمر البيئة البشرية»، حيث تدارس ممثلو مائة دولة مشاكل البيئات الإنسانية سواء كانت عمرانية أو ريفية أو صحراوية.

وقد كان هذا المؤتمر بداية سلسلة من اللقاءات الدولية التى عالجت بجدية وعمق مشاكل التجمعات البشرية والإسكان والزحف العمرانى، وموارد مياه الشرب وزحف الصحراء والتلوث البيئى وغيرها. وفى عام ١٩٩٢، نظمت هيئة الأمم المتحدة المؤتمر الدولى المسمى حينئذ «قمـة الأرض» فى مدينة «ريو دى جانيرو ـ Rio de Janiro» بالبرازيل.

ولأول مرة فى تاريخ البشرية، اجتمع ملوك ورؤساء وقادة ما يزيد عن مائة وخمسين دولة ليوقعوا على الوثيقة التاريخية المسماة «إعلان أو برنامج عمل القرن الواحد والعشرين»، التى أكدت على أهمية التصدى لمشاكل البيئة العالمية من خلال اتفاقات قانونية وعبر مؤسسات التعاون الدولى، ومن أجل الهدف الاستراتيجى الأهم وهـو «التنمية المستدامـة» من خلال مكافحة الفقر، وتغيير أنماط الاستهلاك، وإعداد الكوادر البشرية، والارتفاع بالخدمات الصحية للمجتمعات الإنسانية، والتكامل بين أهداف صيانة البيئة والتنمية الاقتصادية.

ومن الأقوال المأثورة الآن فى العالم الغربى «إن الأرض هى السلعة الوحيدة التى لا تنتج الآن»، والقول واضح فى مفهومه، أننا إذا لم نستخدم هذه الأرض أحسن استخدام وبأكفأ انتفاع فيما يقام عليها وما يستخرج من باطنها، نكون قد أجرمنا جرمًا بشعًا فى حق أنفسنا وحق الأجيال المقبلة.

ولعلنا لاحظنا حاليًّا فى أوربا وأمريكا وكافة بلاد العالم المتقدمة أن مصمم المواقع يقف فى موقف الصدارة وموقع القيادة للحفاظ على البيئة الطبيعية، والدفاع عنها أمام القرارات العفوية التى دمرت فى الماضى القريب لاتزان الموجود فى الخلق الإلهى.

ومما يدعو حقًّا للدهشة أن هذا التدمير للبيئة ما زال يتم ـ وحتى الآن ـ فى البلاد النامية تحت ستار شعارات براقة كالتقدم التكنولوجى أو التنمية العمرانية، حتى تلوثت أنهارنا وبحارنا، وتعرضت شواطئ سواحلنا للتآكل وأوديتنا للسيول وأراضينا الخصبة للانقراض.

ثالثًا: إن معظم البلاد العربية تتميز بمناخ حار جاف صيفًا ومعتدل المطر شتاءً؛ ولهذا فإن طبيعة الحياة اليومية للإنسان العربى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالاستعمالات الخارجية وعناصرها المختلفة مثل، الشرفة والصحن والفناء والسطح والحديقة، والسوق، والشارع، والميدان العام، وخلافه. وبناءً عليه، فإن عناصر الفراغات الخارجية، ونوعيتها ومساحتها ومواقعها وبرامجها وتصميمها وتطويرها أصبح ضرورة مهمة فى تنمية المدينة العربية، ومن المؤسف حقًّا أننا نلاحظ الآن أن تصميم هذه العناصر وتخطيطها يتولاه فى غالب الأمر الكثير من غير المتخصصين، ولا يدعو ذلك للدهشة؛ حيث إن عنصر الخبراء المتخصصين غير متوافر حاليًّا بين أبناء هذه الأمة؛ لأن جامعاتنا العربية ما زالت تفتقر إلى أقسام خاصة لتعليم وإعداد مصمم الموقع الخبير، وذلك باستثناءات قليلة مثل الوضع بالمملكة العربية السعودية التى تمكنت منذ نهاية السبعينيات من إنشاء قسم خاص للدراسات العليا فى حقل عمارة البيئة بجامعة الملك فيصل بالدمام، وكذلك كلية تصاميم البيئة بجامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة. ومما هو جدير بالذكر أن الإهمال لقيمة حقل عمارة البيئة قد أدى إلى عجز الكثير من الفراغات الخارجية فى المدينة

حديقة فناء المسكن

تتميز معظم بلاد الشرق الأوسط بمناخ حار وجاف، ولهذا ارتبطت الأنشطة اليومية للإنسان العربى بالفراغات المفتوحة مثل الشرفة، والحديقة، والفناء، والبساتين.

العربية المعاصرة عن الاتساق مع اعتبارات المناخ صيفًا وشتاءً، وعجزها كذلك عن أن تكون ملائمة لاحتياجات وقيم وفضائل حياتنا الأصلية. وبالمقارنة، يؤكد لنا التاريخ حقًّا أن أجدادنا العرب قد أقاموا دعائم فن عمارة البيئة فى دولة الأندلس وشمال أفريقيا، ونجد أن مدنًا كثيرة، مثل غرناطة وطليطلة وقرطبة والقيروان تشهد على ذلك حتى الآن، ومن روابى أسبانيا فى الغرب إلى العواصم الإسلامية فى الشرق مثل سمرقند وأصفهان وشيراز وأجرا، قدم التراث العربى الإسلامى دروسًا للبشرية فى عشق البيئة الطبيعية، والتمكن والبراعة فى مزج الأشجار والماء وتضاريس الأرض مع المبانى والطرقات والمنشآت. ومن ثم، فلا عجب أن استمرت الحدائق الإسلامية التاريخية حتى يومنا هذا مصدرًا للاستمتاع والبهجة للمسلم ولغير المسلم على وجه السواء.

ولا عجب أيضًا أن تظل كلها عبر العصور واحة للتأمل فى أمور الحياة والموت، والتفكر فى شؤون الدين والدنيا.

رابعًا: إن افتقار المكتبة العربية لأى مرجع علمى أو موسوعة شاملة تتناول الحديقة الإسلامية لهى حقيقة مزعجة قد لا يصدقها القارئ العادى أو الباحث الأكاديمى، فبالرغم من نشر المئات من الكتب والمقالات والأبحاث العلمية عن هذا الموضوع باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية وغيرها، فما زال المؤلفون العرب بعيدين عن هذا المجال من الكتابة والبحث، وقد حاول الكثير من المفكرين المعاصرين تفسير هذا النقص غير المقبول، الذى قد يشير إلى أن اللغة العربية التى كانت فى العصر الذهبى للإسلام لغة السبق العلمى، ليس فقط فى علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، والتاريخ والخطابة، بل فى العلوم الطبيعية والتطبيقية، وحقول الفنون كالموسيقى والعمارة والزخرفة والخزف قد صارت لغة يرميها أهلها بالعجز ويتهمها البعض باعتبارها سببًا للتخلف، بل وتفتقر مكتبتها فى القرن الواحد والعشرين إلى مرجع فى موضوع مهم شغل بال الكثيرين من أهل العلم والفن والثقافة والآداب منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا، ألا وهو الحديقة الإسلامية بجوانبها المختلفة.

وقد يجادل البعض فى أن مئات الكتب التى نشرت بلغات أجنبية قد تكفى، وأنه من

الواجب على المثقفين العرب والهيئات الأكاديمية أن يكرسوا طاقاتهم ويستثمروا أوقاتهم فى ترجمة أمهات الكتب وأهم المراجع الكلاسيكية الخاصة بالحدائق الإسلامية، وردنا على هذا واضح وصريح:

«إن جهود الترجمة مطلوبة ومحمودة دائمًا فى هذا الحقل، بل وفى شتى حقول العلم والمعرفة أيضًا، ولكنه لا غنى عن كتب وأبحاث باللغة العربية وبقلم مؤلفين من الناطقين باللسان العربى والدارسين لعلوم القرآن والسنة والواعين بأدبيات الثقافة الإسلامية، والملمين بدراسات وتاريخ الفنون الإسلامية».

وقد توصلت إلى اقتناعى هذا بعد أن أمضيت ما يزيد عن ربع قرن فى البحث والتدريس والتأليف فى هذا المجال، واستنتجت أنه بالرغم من الجهود الجبارة والكفاءة العلمية لكثير ممن قاموا بالتأليف والنشر فى هذا المجال إلا أن كتاباتهم قد امتلأت بأخطاء ـ غير متعمدة فى الغالب ـ أو نواقص شتى وسوء فهم أو سطحية فى تفسير الكثير من الجوانب الخاصة بالأبعاد الحضارية والروحية والإنسانية لحدائق الإسلام.

ولا يغيب على الباحث المدقق فى مجال عمارة وتصاميم البيئة أن يدرك أن كل هذه السلبيات ناتجة عن الجهل بالخصوصية الثقافية والذاتية الحضارية لأخلاقيات وفنون وآداب المسلمين، فالرحالة الأوروبى أو الأمريكى فى أغلب الأحيان يكتب عما يرى وليس بالضرورة عما يفهم من معانى وأهداف وتراث فلسفى خلف العمل الفنى الذى يزوره.

والإسلام ليس دينًا فحسب، بل طريق حياة، امتد وانتشر شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، واعتنقه مئات الملايين من البشر من أجناس وأعراق مختلفة ووحدتهم عقيدة لا إله إلا الله، وتجمعت قلوبهم على حب رسوله العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، وارتبطت ثقافتهم بالقرآن الكريم.

ومما يؤكد صحة استنتاجنا هذا أنه فى العقود القليلة الأخيرة تبلور إجماع فى الأوساط الأكاديمية أن حقل دراسات الفنون الإسلامية عامة، وفن الحديقة الإسلامية خاصة هو وليد شرعى وطبيعى لحقل اللغات الشرقية، فعلماء اللغويات والمؤرخين بحثوا الثقافة الإسلامية من خلال النصوص المكتوبة وأدبيات عصور الإسلام المختلفة،

ولكنهم أعطوا الأولوية والصدارة القصوى للقرآن الكريم؛ لأهميته العقائدية والتاريخية ولكونه وثيقة ميلاد لهذا الدين السماوى الجديد.

وإضافة إلى ما سبق من عوامل تؤكد على أهمية وضرورة المعرفة العميقة باللغة العربية والثقافة الإسلامية لدى كل مؤلف يتصدر للكتابة عن فنون الإسلام، فمن الواجب أيضًا التأكيد على أن الظاهرة الغالبة على الفنون الإسلامية هو الدور الرئيسى الذى يلعبه النص المقروء، ويبدو أن المعانى والأفكار والمشاهد غالبًا ما تصل للمشاهد من خلال الكلمات المكتوبة وبدرجة أقل كثيرًا من خلال المناظر المرسومة ،وبالرغم من هذا فمن الخطأ الفادح أن نتصور أنّ ما ذكر عن جنات الخلد فى القرآن هو وصف هندسى تفصيلى، وإنما هو ومضات وإشعاعات تكفى لإلهام أحاسيس ومشاعر الفنان فى إبداع وابتكار حدائق الأرض.

ومن اللافت لنظر الكثير من النقاد الفنيين وعلماء تاريخ الفن أن حلم الحديقة الإسلامية بالذات انتشر واتسع مداه لينعكس على فنون أخرى كزخرفة مصابيح القصور وقناديل المساجد، وتعشيقات الرخام، وتصميمات السجاد العجمى، والخزف العثمانى، ورسومات الكتب والوثائق المهمة.

كما يجب إضافة أن شيوخ وأقطاب الطرق الصوفية بما لهم من ذهن شاعرى وإحساس فنى كانوا من أكثر المهتمين وأسبقهم فى التغنى بقصائد عن الإنسان والطبيعة، وجنات الآخرة، وروائع الفردوس المنشود عند كل عابد وعارف ومؤمن. ومن ثم، كان لهم تأثير كبير على تبلور فكرة الحديقة الإسلامية، فعلى سبيل المثال يشير ابن عربى فى تأملاته الصوفية إلى احتواء حدائق جنات الآخرة على ثمانية أنواع، فبعضها مخصص للأطفال الذين فارقوا الحياة قبل بلوغهم سن الرشد، وبعضها لمن لاقى عقابه فى الآخرة، وكل منها تنقسم إلى عشرات الدرجات لمكافأة كل إنسان على قدر عمله خيرًا أم شرًّا، وإلى جانب ابن عربى نجد أعلام الصوفية مثل أبى الحسن النووى، وجلال الدين الرومى، ومحمد إقبال، قد استفاضوا فى الحديث عن الفردوس الموعود وجنات الخلد.

والقارئ المتعمق مثله كمثل المؤرخ النابه أو الفنان المتأمل، سيخلص من رحلته مع كتابات هؤلاء العمالقة إلى الأنسجة المتناغمة والصور الفنية المتعددة عند كل منهم،

وسوف يندهش كيف يتحول النص القرآنى إلى قصيدة، وكيف تتحول القصيدة إلى رؤية. أما الباحث فى تاريخ فن تصميم الحديقة الإسلامية فسيرى أشياء أخرى، سير ى كيف تتحول الرؤية إلى حديقة، وكيف تترجم القصيدة والرؤية إلى بلابل تصدح، وإلى عطر يفوح، وإلى أشجار تنمو لتجلب الأغصان والزهور والظلال، وإلى نافورات تتدفق لتصنع العيون والجداول وتجلب الحياة والجمال.

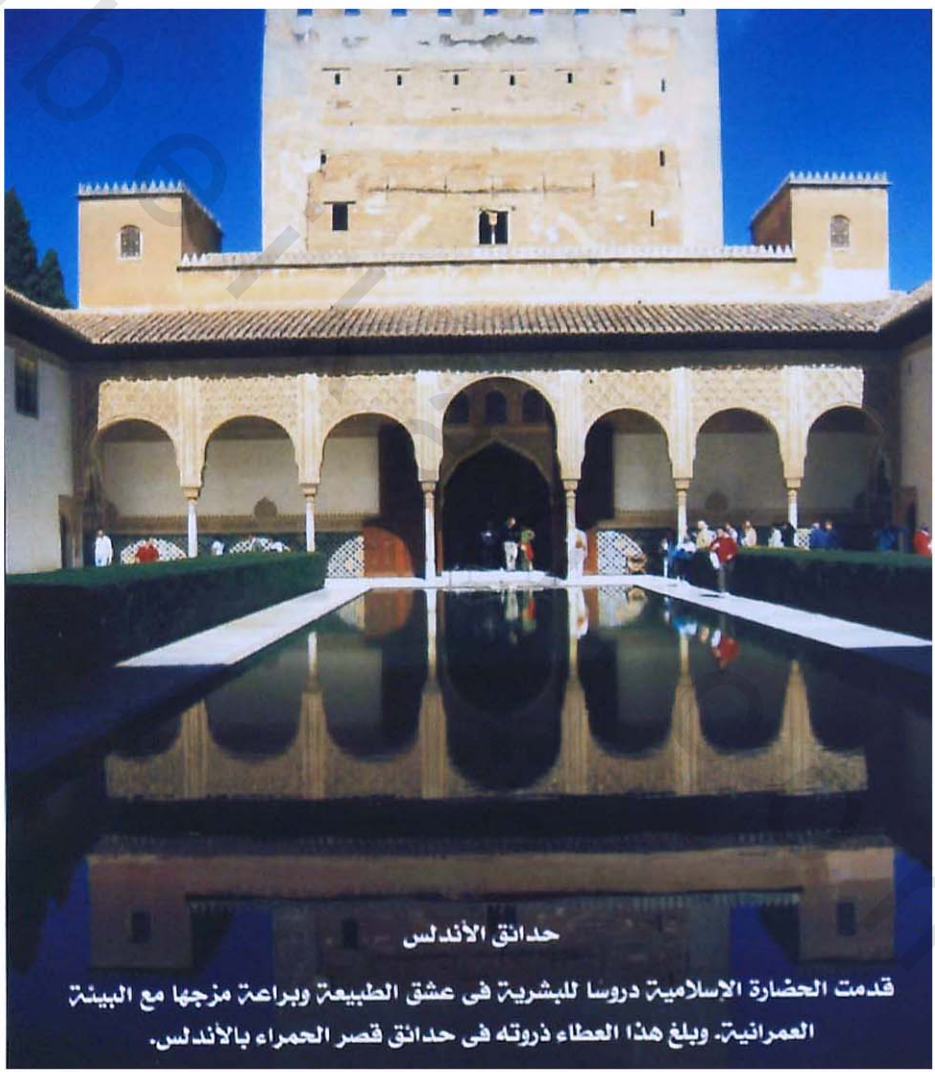

حدائق الأندلس

قدمت الحضارة الإسلامية دروسا للبشرية فى عشق الطبيعة وبراعة مزجها مع البيئة العمرانية. وبلغ هذا العطاء ذروته فى حدائق قصر الحمراء بالأندلس.

٢- تعريف الحديقة الإسلامية

يطرح دائمًا علماء تاريخ الفنون مجموعة من الأسئلة التقليدية كمدخل فى دراستهم لأى حقبة تاريخية. ولهذا، فليس من الغريب أن يتردد بين بعض الباحثين فى مجال دراسات الفنون الإسلامية سؤال نمطى وأساسى، مثل هل يوجد فعلًا ما يمكن تسميته بالحديقة الإسلامية ؟ وقد يستطردون من خلال هذه المقدمة إلى أسئلة أخرى مماثلة فى أهميتها مثل:

* هل ترتبط الحديقة الإسلامية فقط بالصور المثالية لجنات الخلد كما صورها القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف؟ أم أن عوامل البيئة والاقتصاد والسياسة كان لها تأثير فاعل أيضًا؟
* هل من المناسب أن نعالج موضوع الحديقة الإسلامية من خلال تصنيف واضح لأنواع هذا الفن مثل الحديقة الخارجية، أو ما يسمى بالبستان وحديقة الصحن، وحديقة القصر، وحديقة الضريح وحدائق المقابر ... إلخ، بالرغم من تشابه الكثير منها فى مميزات عدة وعناصر شتى، بل وتطابقها فى بعض الأحيان من حيث أهداف التصميم الفنى والمعالجة البيئية؟

ويبدو واضحًا من بعض هذه التساؤلات أن شعوب أوروبا وأمريكا فى عصرنا الحالى تجهل ـ عمدًا أو عفوًا ـ أن فن تصميم الحدائق كما هو ممارس الآن تعود جذوره العميقة إلى تراثنا العربى من خلال عصور ازدهار الدولة الإسلامية، ويعتبر فن تصميم الحدائق الآن إحدى المهام الرئيسية لحقل عمارة البيئة. ونظرًا لضحالة المساهمة الحالية للعالم العربى فى الحركة الأكاديمية والتطبيقية لهذا المضمار، نجد أن قليلًا ما يُذكر عطاؤنا الحضارى فى الماضى.

وأعتقد أن هذا الجهل المتفشى بقيمة المساهمة التى قدمتها الحضارة العربية فى الماضى يرجع أصلًا إلى تهاوننا فى دراسة هذا التراث الخصب وتحليله وتدوينه، ثم نشره باللغة العربية، وترجمته إلى اللغات الأخرى.

ولعله من المهم ـ بادئ ذى بدء ـ أن نؤكد أنه من الحكمة، بل من الضرورة أن نعالج موضوع الحديقة الإسلامية على مستوى شمولى للعالم الإسلامى كله، وليس على نطاق

ضيق لمنطقة جغرافية محدودة أو حضارة قومية بذاتها، وإذا تتبعنا هذا القول سنجد أن مهمتنا فى تعريف الحديقة الإسلامية أصبحت مهمة ضخمة فى حجمها؛ لأنها ستمتد عبر ثلاث قارات، هى: آسيا وأفريقيا وأوروبا. وإذا نحن ألقينا النظر على الأمثلة الباقية حتى يومنا هذا من الحدائق الإسلامية التاريخية، فسنجد أنها تشمل حقبة زمنية تقرب من ثمانية قرون (فى رأى غالبية علماء التاريخ)، ولكن إذا تعمقنا بعين الباحث فى مصادر أخرى كالمخطوطات الأثرية والمؤلفات الأدبية والحفريات، فسنجد أن تاريخ الحديقة الإسلامية قد غطى ما يزيد عن الأربعة عشر قرنًا، ونخلص من كل هذا أن مهمة كتابة بحث شامل عن الحديقة الإسلامية يعتبر مهمة شاقة وضخمة لأكثر من سبب، أهمها أن الحدائق الإسلامية قد بنيت عبر التاريخ فى أقاليم وبلاد متعددة وعبر قرون طويلة وساهم فيها أشخاص كثيرون. وإلى جانب هذا فإن العقبة الكبرى أن الحديقة بطبيعتها ليست بناء معماريًّا ثابتًا أو صرحًا مثل الآثار والمنشآت الحضارية الأخرى، بل جزءًا من البيئة الطبيعية التى تتأثر بالمناخ، وعوامل التعرية وتغيرات استعمال الأرض بواسطة الحكومات المتعاقبة، والتغير فى أولويات أصحاب العقارات وذوى الأملاك ومستأجرى الأرضى.

ولذا، فإن التأريخ لها وتحليل أطوارها سيعتمد أساسًا على ما تحتويه الوثائق التاريخية، أو ما دونه المؤلفون والرحالة فى عصورهم.

٣- قارئ هذا الكتاب

يبدو لى من خلال خبرتى الطويلة فى مجالات التدريس والبحث والتطبيق لمهنة الهندسة المعمارية وعمارة البيئة وتخطيط المدن أن كتابًا كهذا ـ يتناول موضوع «الحديقة الإسلامية» ـ يكون محل اهتمام نوعيات مختلفة من القراء مثل الباحثين فى تاريخ الفنون الإسلامية، وطلاب وأساتذة حقول تصاميم وعمارة البيئة وعلوم التخطيط العمرانى والإقليمى والبيئى. كما أتوقع أيضًا أن يكون محل نقاش بين الدارسين والمهتمين بموضوع تصميم الحدائق والمتنزهات والمناطق الخضراء المفتوحة، إلى جانب المثقفين والناشطين فى أمور شؤون البيئة وجمعيات المحافظة على الطبيعة، ومؤسسات المجتمع المدنى المشغولة بصيانة التراث الحضارى والإرث التاريخى للمجتمعات الإسلامية.

وقد لا أكون مبالغًا فى الاعتقاد أن الحديقة الإسلامية كان لها دائمًا مكانة خاصة فى شتى أنواع الفنون الجميلة للدولة الإسلامية عبر العصور؛ لأنها تمثل النموذج الفاضل والمفضل للتكوينات المرئية والجمالية فى فنون الرسم، والنحت، والخط العربى، وطباعة النسيج، وصناعة السجاد العجمى الشهير، وزخرفة الدور والقصور والمبانى العامة.

٤- تصحيح المفاهيم

وقبل أن نستطرد فى معالجة موضوع الكتاب الرئيسى وتحليل الحديقة الإسلامية من كافة جوانبها، يجب الإشارة إلى أن تصميم وتخطيط أى حديقة هو فن مثل كل الفنون الأخرى؛ أى أنه يشمل مجهودًا ذهنيًّا لحل مشكلة معينة أو تحقيق أهداف انتفاعية ومعنوية بذاتها من خلال المعاناة الفكرية والنفسية للفنان لابتكار أشكال تتميز بالتكوين الجمالى، ولإبداع علاقات ناجحة مع البيئة الطبيعية، ولتوفير مناطق خضراء مفتوحة صالحة للاستعمال البشرى، ولتنمية العلاقات الإنسانية بين المستعملين. وقد استمر فن تصميم الحدائق خلال عصور التاريخ منذ الدولة الفرعونية لقدماء المصريين وحتى يومنا هذا فى تطور ونبض مستمر، حتى أصبح تخصصًا دقيقًا ومحدودًا من مهنة متعددة الجوانب ومتسعة الأهداف حين تبلورت فى بداية القرن العشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية تحت اسم «Landscape Architecture»، والتى اصطلح البعض فى العالم العربى على تسميتها بعمارة البيئة أو تنسيق المواقع. ورغم اتفاق المتخصصين فى الشرق والغرب على تعريف عمارة البيئة بأنها حقل يشمل التصميم والتخطيط المتخصص الذى يعتمد على تطبيق مبادئ العلوم والفنون لتحقيق أفضل استخدام وإدارة للأراضى، فللأسف إن الكثيرين من العامة وحتى أصحاب الشهادات العلمية منهم ما زالوا يخطئون الفهم متصورين أن عمارة البيئة تقتصر على تجميل المواقع الخارجية بنباتات الزينة. وبالطبع فإن مثل هذا الخطأ الأساسى مَثَّل خلطًا غير مقبول بين علوم البساتين ونباتات الزينة، وهى إحدى فروع العلوم الزراعية وبين مهنة عمارة البيئة التى مضى عليها قرنٌ من الزمن كحقل مستقل منفرد له شهادته العلمية الخاصة على شتى المستويات الجامعية والماجستير والدكتوراه، وله نقاباته ومراكز أبحاثه، وجمعياته النشطة بمؤتمراته ومجالاته العلمية المتخصصة فى شتى أنحاء العالم. وعمومًا فيجدر بنا ونحن على أعتاب القرن الواحد

والعشرين أن نشير إلى المحاولات المخلصة التى قام بها كثيرون من ممارسى مهنة عمارة البيئة وأساتذتها، والباحثين فيها لتوعية الجماهير العربية بماهية هذا التخصص، ولكن لسوء الحظ ما زالت الفكرة العالقة فى أذهان الغالبية العظمى من الناس أن عمارة البيئة لا يزيد عن مجرد تنسيق لنباتات الزينة، وتجميل الحدائق بالأشجار والزهور والحشائش. وبالطبع، فإن هذا التصور خطأ فاحش، ويشترك فى تحمله بعض الفنيين وخبراء التخطيط والمهندسين الذين لم تسمح لهم مناهج التعليم فى جامعاتنا حاليًا أو فرص ممارستهم العملية بالاطلاع على الدور المثالى الذى يلعبه اليوم معماريو البيئة أو مهندسو عمارة البيئة فى الدول النامية، مثل أمريكا وكندا وأوروبا واليابان. ومن أجل تفنيد هذا التصور الخاطئ يجب الإشارة إلى نقطتين مهمتين:

أولًا: طبقًا للنظرة الشمولية فى تعريف حقل عمارة البيئة، فإن مجالها حاليًا يتناول تصميم البيئة الإنسانية الكلية، ولا شك أن النباتات هى إحدى عناصر هذه البيئة وتعتبر إحدى مكوناتها المهمة. ولهذا، فإنه يبدومنطقيًا بل يتحتم على معمارى البيئة أن يكون واعيًا بالنباتات ليس فقط من وجهة نظر خواصها البيئية والإيكولوجية، ولكن أيضًا كعنصر من عناصر التصميم له خواص فنية وهندسية ومناخية.

ثانيًا: يجب التأكيد على أن أبرز دور تلعبه النباتات فى عملية التصميم البيئى هو تكوين الفراغات والتحكم فى أشكالها ونوعياتها؛ ذلك لأن الهدف الأمثل والرئيسى لعلوم تصاميم البيئة الأربعة هو خلق الفراغات النافعة لاستعمالات الإنسان فنجد مثلًا:

- «فن العمارة ـ Architecture» يهتم بتصميم المبانى وخلق الفراغات الداخلية.

- و«علوم تخطيط المدن ـ City Planning» يهتم باستيطان السكان، والتنبؤ باحتياجاتهم الاقتصادية والاجتماعية والمادية خاصة فى المجتمعات العمرانية.

- أما حقل «الهندسة المدنية ـ Civil Engineering» فيختص بتلبية حاجات المجتمع من طرق وجسور ونظم رى، وتوفير البنية التحتية للمستوطنات السكانية بما فيها من شبكات مياه الشرب والمجارى والصرف الصحى.

- أما مهنة «عمارة البيئة ـ Landscape Architecture» فتهتم بإدارة استعمالات الأراضى، وتصميم الفراغات الخضراء المفتوحة، وتخطيط الأنشطة الخارجية، وتعتبر

فعلًا حلقة الاتصال بين فن العمارة وعلوم تخطيط المدن، ولقد اتفقت الأوساط العلمية مؤخرا على التعريف الآتى:

«هـو فن تصميم وتخطيط أو إدارة الأراضى وتنسيق عناصر البيئة العمرانية مع عناصر البيئة الطبيعية، على أن يتم ذلك بواسطة تطبيق المعرفة العلمية والتراث الحضارى بهدف الحفاظ على المصادر والطاقات، ولأجل توفير بيئة نافعة وسعيدة».

ومن الواجب أيضًا أن نتطرق إلى موضوع شابه بعض اللبس وسوء الفهم، وأقصد به الانتشار الجغرافى وعدد الأمثلة التاريخية اللازم دراستها قبل الوصول إلى تعميم نظرى عن ماهيـة الحديقة الإسلامية عبر العصور وفى كافة الأقاليم. فقد ساد الاعتقاد فى الأوساط العلمية دائمًا أن الحديقة الإسلامية التقليدية تشمل ثلاثة أنواع فقط، هى: حدائق الدولة الأموية وملوك الطوائف فى أسبانيا والمسماة أحيانًا «Moorish Empire»، وحدائق مدن فارس مثل أصفهان وشيراز وشرف، وحدائق المغول الإسلامية Moghul Empire فى القارة الهندية. وقد حان الوقت لتصحيح هذا الاعتقاد الخاطئ عن طريق القيام بدراسات متكاملة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لبيان الأمثلة العديدة خاصة فى سوريا وصقلية والجزائر والمغرب وتونس ومصر وتركيـا والعراق والجزيرة العربية وأفغانستان والقارة الهندية وبلاد الصين وأوزبكستان.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن بعض الجهود قد تمخضت فى السنوات القليلة الماضية عن عدة مشروعات واعدة فى مجال دراسة الحديقة الإسلامية، وأول هذه المشروعات هو المعروف الآن بـ«حديقة الشرق الأوسط التراثية ـ Middle East Garden Tradition»، وقد بدأ بداية متواضعة حيث دعا البروفيسور الفرنسى «ميشيل كونان ـ Michel Conan» والبروفيسورة التركية «نورهان أتاسوى ـ Nurhan Atasoy» إلى اجتماع تمهيدى فى واشنطن لتبادل المعلومات والخبرات بين مجموعة محدودة من المهتمين بتاريخ حدائق الشرق الأوسط، وقد عقد هذا الاجتماع فى يونيو ٢٠٠٤ بالعاصمة الأمريكية واشنطن بأحد مراكز الأبحاث التابع لجامعة هارفارد، وتقرر فى هذا الوقت تنظيم اجتماع آخر فى أكتوبر ٢٠٠٥ بمدينة غرناطة فى أسبانيا، حيث انضم إلى الفريق مجموعة أخرى تضم أكاديميين وباحثين من باكستان وإيران وتركيا وأسبانيا وإسرائيل، واتفق الفريق فى غرناطة على تجميع مجلد يضم عدة أبحاث يكتبها أفراد

المجموعة التى ساهمت بالحضور، وقام بالتحرير البروفيسور كونان، بينما ساهمت مؤسسة جامعة هارفارد للنشر بإصدار هذا الكتاب فى عام ٢٠٠٧ تحت عنوان «تراث حدائق الشرق الأوسط: الوحدة، والتنوع، والتساؤلات، والمناهج من منظور التنوع الثقافى ـ The Middle East Garden Tradition، Unity and Diversity: Questions، Methods، and Resources in a Multicultural Perspective»، ورغم أنه من الواضح غياب دور الأكاديميين والباحثين العرب فى هذه الجهود الجديدة والتطورات المهمة ـ باستثناء انضمام الأستاذ محمد الفايز، وهو مغربى الأصل إلى تجمع غرناطة ـ فإنه يبدو أن الفرصة ما زالت مفتوحة للمشاركة فى مثل هذه المنتديات، خاصة وأن العمل بدأ تدريجيًا فى أكثر من مشروع، ولعل أهمها حتى الآن هو إطلاق الموقع الخاص على الشبكة العالمية العنكبوتية تحت عنوان http: www.middleeastgarden.com، ويضم هذا الموقع حصيلة ما تم حتى الآن من محاولات لإنشاء أكثر من بنك معلوماتى مفهرس باللغة الإنجليزية وكذا بلغات أخرى، مثل الفرنسية والأسبانية والتركية والعربية والفارسية والعبرية. وحتى الآن يضم هذا الموقع قائمة تحت الإنشاء عن الحدائق التركية وحدائق الأندلس، ومعجم مصطلحات النباتات الموثقة فى الحدائق التاريخية لبلاد الشرق الأوسط. وكما يبدو، فإن الهدف الأساسى من هذا المشروع هو توفير المعلومات والحقائق الأساسية للباحثين وطلاب العلم، وهذا جهد يجب تشجيعه رغم أن الطابع الوصفى يبدو غالبًا على محتويات هذه البنوك؛ نظرًا لأن أكثر المساهمين فيها هم من علماء الآثار والحفريات وعلوم النبات وتاريخ الفن. وعمومًا فمن الصعب التنبؤ بالاتجاهات التى ستأخذها مثل هذه المحاولات الوليدة فى المستقبل، وهل سيساهم الأكاديميون العرب بنشاط وحماس؟ وهل سيهتم مهندسو عمارة البيئة بدعم هذه الجهود وإضافة دراسات تحليلية ونقدية متعمقة؟ هذا ما ستثبته السنوات القادمة سلبًا أو إيجابًا.

ونتمنى أن يكون هذا الكتاب بداية متواضعة لتكاتف الجهود بين إخصائى عمارة البيئة وأساتذة تاريخ الفن والباحثين فى الحضارة الإسلامية العربية لتوثيق وتحليل الدراسات الخاصة بأمثلة الحدائق التاريخية كل فى بلده أو إقليمه.

٥- جدوى دراسة الحديقة الإسلامية

يشكك الكثير من المهتمين بقضايا التنمية فى العالم العربى من جدوى النظر للوراء كثيرًا أو استثمار الوقت والجهد فى دراسات تاريخية، وينادون بالتركيز على أبحاث المستقبل وخطط الإنماء، التى يروج لها الآن فى القرن الواحد والعشرين تحت مسميات كثيرة كالعولمة أو التحديث أو النظام العالمى الجديد وغيرها من عبارات براقة. ومن هذا المنطلق، تبدو محاولات إعداد دراسة عن الحديقة الإسلامية وتاريخها بشكل خاص ومتعمق أمرًا يجب مناقشته والدفاع عن جدواه قبل الخوض فى هذا البحث المتعدد الجوانب. وهنا يجب الإشارة إلى أن هذا الجدل قد يتسع مداه إلى أبعاد شتى، ويبدو لنا أن أخطرها هو التقليل من أهمية دراسة تاريخ الحضارة والفنون بصفة عامة، وقد ناقش هذه النقطة المؤرخ الأمريكى المشهور «دانيال بورستاين ـ Daniel Borstein» الذى شغل منصب أمين مكتبة الكونجرس فى حقبة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين حين قال:

«لقد أكدت لى خبرة حياتى أن دراسة التاريخ ليست دراسة فى أنماط وقوانين الحياة، بل هى علم يبحث فى الانفراد والتميز فى المنظومة الإنسانية. إن دراسة التاريخ هى الطريق لاستكشاف الإمكانات المتعددة للبشر، وبغير هذا ستنغرز مسيرتنا نحو التقدم فى مستنقع النمطية وأوحال التكرار».

وأعتقد ويشاركنى الكثير من المثقفين العرب، أن تحديات التنمية هى معركة حضارية قبل أى شىء. ورغم اقتناعى أنه يجب علينا فى خضم هذه المعركة أن نأبى الانغلاق على أنفسنا، ولا نرفض الجديد والحديث أو العالمى باعتباره دخيلًا، فذلك ما هو إلا استسلام لانتحار بطىء، ولكن فى الوقت نفسه، لا يجوز الهرولة وراء كل ما يأتى من الغرب باعتباره يمثل التقدم، فليس كل جديد مفيدًا وليس التقدم وقفًا على الغرب ونتاجه.

ومن المهم فى مجالنا هذا ونحن نستكشف فن وتاريخ ومستقبل الحديقة الإسلامية، أن نؤكد على أن نهاية الانقطاع عن الجذور الحضارية جريًا وراء مفهوم واهٍ للتقدم، ما هو إلا تخبط فى الضياع أو ملاحقة السراب، فماضينا جزء منا، بحلوه ومره على السواء، وواجب علينا الخروج من تلك الحلقة المفزعة التى تدعى أن هناك تناقضًا بين الحداثة والتراث، وذلك بالتأكيد على التجديد والتأصيل كوجهين لعملة واحدة خاصة فى حقول عمارة البيئة ودراسات تاريخ الفنون الإسلامية.

ولعلنا لا نبالغ إذا أكدنا أن دراسة تاريخ الحديقة الإسلامية سيساعدنا فى تحديد أهداف المستقبل لمجتمعاتنا العمرانية بالوطن العربى، وعلى توجيهه بتواصل المسيرة المطلوبة لتحقيق التنمية البيئية المستدامة. كما تساهم دراسة تاريخ عمارة البيئة بصفة عامة فى توضيح المفاهيم الحالية للمجتمعات العربية والإدراك الحسى لأفرادها تجاه البيئة الطبيعية والجذور الثقافية لهذه الاقتناعات والتصورات.

فالحديقة الإسلامية بتنوعها الجغرافى تقدم للباحثين فى مجال تصاميم البيئة أمثلة مفيدة لخبرة المجتمعات الإنسانية القديمة وإنجازاتها فى التكيف مع بيئتها الطبيعية، وكذلك قدرة البشر على ترويض بيئتهم الطبيعية كى تلبى احتياجاتهم المادية والمعنوية. ومن ثم، فدراسة كهذه سوف تساعد على تركيز الأنظار على أهداف وتوجهات المجتمع الإقليمى فى الماضى، وعلى توضيح وشرح الخلفية الثقافية لأعماله الخالدة عبر الزمن الغابر.

ونظرًا لتميز الحديقة الإسلامية بسبب تصميماتها التى تنبع من ثقافة ثرية وأفكار متدفقة وعقائد روحية نبيلة ومثاليات جمالية رفيعة، فإن أغلب الأكاديميين وعلماء التاريخ والفنون ينظرون لها كمصدر لا ينضب ليستوحوا منه منظومات فنية جديدة واستخدامها كقاعدة تعليمية زاخرة بالتجارب والإنجازات الإنسانية. ويتفق فى هذا التوجه الكثير من أهل الفكر والأدباء والفنانين وكذلك ممارسى مهنة عمارة البيئة، بل ويشاركوننى الاعتقاد أن مواد تاريخ علوم البيئة وغيرها من مواد تاريخ الفنون هى المقدمة المثلى لتربية وتدريب مهندس عمارة البيئة الناجح؛ وذلك لأن هذه الدراسات تقدم للطالب المبتدئ جرعة هائلة من مفردات التصميمات المتميزة عبر التاريخ. ونتأمل فى أسرار نجاحها وخلودها من خلال تحليلات للدور الذى تلعبه العناصر المختلفة من كتلة وشكل وموقع وضوء وظلال ومضمون وعلاقات تكوينية. وهذا ما لاحظه الخاصة والعامة عند زيارتهم أو دراستهم للحدائق الإسلامية التاريخية المرموقة، فقد وجدوا منجمًا لا ينضب من الأفكار والمثاليات ودروس الجمال والتأملات الفلسفية والروحانية. وعليه، فإننا فى هذا الكتاب نقدم الحديقة الإسلامية كإرث حضارى للإنسانية جمعاء، وليس حكرًا على قوم بعينهم أو دين بذاته أو إقليم بحكم موضعه أو ثراء حدائقه التاريخية.

وقناعاتنا أن هذا الإرث الإنسانى يحوى سجلًا حافلًا بالإنجازات الحضارية وعامرًا بدروس النجاح، قد عَبَر الهزيمة فى محاولات التكيف مع قوانين الطبيعة المتجانسة وطبائع البشر

المتقلبة. ويحضرنى فى هذا الصدد ما قاله عالم التخطيط العمرانى الأمريكى الشهير «لويس منفورد ـ Lewis Munford» فى كتابه المهم «ثقافات المدن ـ The culture of Cities».

«إن هناك العديد من الحضارات البشرية التى برزت ثم انهارت عبر التاريخ، ولكن بدون أن تعى أو تدرك تمامًا مدى تأثيرها على بيئتها المحيطة من أرض وبشر».

وتعتبر دراسات الحديقة الإسلامية ذات أهمية خاصة؛ ففن تصميم الحديقة هو الفن الوحيد بين الفنون الأخرى الذى ازدهر تحت عباءة الحضارة الإسلامية، والذى لم يحظ حتى الآن بقدر كافٍ من البحث والتدوين فى المكتبة العربية، كما هو الحال بخصوص الفنون الأخرى كالعمارة والخط العربى والزخرفة والخزف والفسيفساء، التى استولت على اهتمام كبير عند المؤلف والقارئ العربى العادى والمتخصص على وجه السواء.

ومن الجدير بالذكر الإشارة فى هذا الصدد أيضًا أن هذا الحقل الخاص من تاريخ الفنون الإسلامية قد عانى وما زال يعانى من آفات التعميم الشديد الذى أدى إلى تشوهات فى التقييم الفنى لكثير من إنجازات العصور المتقدمة للإسلام فى مجال عمارة البيئة، ويعتبر ذلك نتيجة للإصرار على بحث كل الأمثلة الموجودة أو المدونة فى الوثائق التاريخية من وجهة نظر فقه القرن السابع عشر، الذى تبلورت فيه المذاهب المختلفة، وبدون عناية بالفوارق الجغرافية والاجتماعية والبيئية والحضارية بين أقاليم متباعدة الثقافة، مثل كشمير والأندلس.

وتعتقد الباحثة «دى. فيرتشيلد رجلز ـ D. Fairchild Ruggles» أن غالبية الدراسات المتعلقة بعلاقة تصميم الحديقة الإسلامية بأدبيات الدين الإسلامى كانت محدودة النطاق؛ إذ ركزت فقط على القرآن والسنة، وعلى أمثلة الحدائق الأندلسية المتقدمة، وبدون تحليل لأى من الأمثلة المهمة التى جاءت فى وقت لاحق مثل حدائق مدينة الزهراء أو ما شمله الإرث الحضارى لشبه القارة الهندية خاصة فى عصر الأباطرة بابور وشاه جاهان وهمايون، رغم أن المعروف عن الحدائق الإسلامية فى جنوب شرق آسيا احتواء تصميماتها على عدد هائل من العناصر والأشكال والتكوينات الفنية، والكثير منها كان من ابتكار الفنان المسلم ونتاج مهارته الخلاقة أو كان تطويرًا متميزًا لما تم فى عصور سابقة لعصره أو فى أقاليم مختلفة أخرى.

الخلاصة

وبناءً على ما سبق ذكره من مناقشة جدوى البحث والدراسة فى موضوع الحديقة الإسلامية، فلعل القارئ قد استنتج معى أن تقصيرًا جسيمًا قد استمر لقرون عدة؛ حيث أغفلت مراكز البحوث والجامعات العربية والمعاهد العلمية، بل وأغفل أيضًا أهل الفكر والأدب وأساتذة تاريخ الفن العرب المساهمة فى البحث والتقييم والتدوين للحدائق الإسلامية.

إن فن تصميم الحدائق مثل كافة الفنون الجميلة الأخرى هو تعبير جمالى لما لدى الإنسان المسلم من رؤية فريدة ومتميزة تجاه البيئة الطبيعية وتجاه الواقع المكانى والزمانى والبعد التاريخى، بل والمجتمع الإنسانى والأمة التى ينتمى لها، وأيضًا نحو ارتباطه العضوى والنفسى بكل هذه العوامل.

فهو إذًا فن يغلب عليه دائمًا التراث الثقافى والحضارى السائد فى المجتمع الذى أنتجه، والفريق البشرى الذى شارك فيه من فنانين وعلماء وعمال ماهرين أو من زوار ومستعملين.

ولا شك أن الدراسة المتأنية والمدققة للحدائق التاريخية تؤدى إلى التعرف على تأثير الإرث الحضارى الإسلامى على الفرد والجماعة، وعلى نوعية إدراكهم الحسى والمعنوى للبيئة الطبيعية وإدارة الموارد الطبيعية.

مما لا شك فيه أن الحديقة الإسلامية كانت وما زالت مصدرًا لا ينضب لإلهام الفنانين على اختلاف أنواعهم من شعراء ورسامين وأدباء ومعماريين، كما كانت حافزًا أساسيًّا لفنانى عمارة البيئة على استكشاف أنماط مختلفة وأفكار متنوعة لمعالجة الفراغات الخارجية وعناصر وعلاقات البيئة الطبيعية بها.

وإلى جانب ذلك، فتجدر الإشارة إلى عامل مميز تتميز به الحضارة الإسلامية عن الحضارات الأخرى وهو الترابط الوثيق للعلاقات بين فنونها المختلفة.

والحدائق الإسلامية الشهيرة مثل حدائق قصر الحمراء، وجنات العريف، وشالامار باغ، هى أوضح دليل على هذا الترابط بين الفنون، فبينما يستخدم مهندس عمارة البيئة الأشجار والزهور والمياه والصخور كعناصر تقليدية أساسية فى تكوين الفراغ

الخارجى، يُضم إليه مجموعة أخرى من فنانين فى الخط العربى والعمـارة والنحت والخزف والنقش والسيراميك ليشاركوا فى سيمفونية فنيـة خالدة على مـر العصور نطلق عليها ببساطة حدائـق الأندلس.

وأخيرًا، فدعونا من مروجى الأباطيل ومحترفى التشكيك ممن يعملون على إبعاد التراث الحضارى والجذور الثقافية عن مسيرة التنمية وخطط المستقبل، فكل محاولاتهم إنما تستهدف إفراغ الفنون من مضمونها كميدان للتعبير عن الغايات السامية والنبيلة للإنسان.

وهذا الكتاب هو رد عملى على فساد رأيهم؛ لأن الإنسان الذى لا يفسح للفن مجالًا فى نفسه وقلبه وفكره هو إنسان مظلم السريرة، والأمة التى لا تعرف للفن قيمة فى بناء الإنسان والمجتمع وبناء الحضارة أمة ظالمة متغطرسة وشريرة. وعلى هذا، فيحق للإنسانية كافة أن تشعر بالفخر والعزة عندما تجد أن فن تصميم الحديقة الإسلامية قد بلغ مستوى من الشمولية الإنسانية فأرضى جميع الأذواق وأعجب جميع النفوس، واستطاع أن يهز مشاعر مختلف الطبقات، شعبية كانت أو مثقفة، بدائية كانت أم راقية، وبهر جميع الشعوب شرقية كانت أم غربية. إنّ فنًّا كهذا من الممكن تسميته بالمثل الأعلى، فهو فن تتداخل فيه الفطرة والموهبة والمعاناة والصنعة الماهرة والدراسة والتقنية المستفيدة من التجارب الإنسانية والخبرة العملية بجانب الإحساس المرهف.. هو باختصار فن جامع شامل.